

## ما بين اصرار الحجاج وكبرياء ابن الزبير: المنجنيق يحل حُرمة البيت الحرام

أ. د. حماد فرحان حمادي<sup>1</sup> أ. م. د. اسماعيل مجبل حمد<sup>2</sup>

متقاعد<sup>1</sup> جامعة الأنبار - كلية التربية للبنات<sup>2</sup>

[ismael.mujbel@uoanbar.edu.iq](mailto:ismael.mujbel@uoanbar.edu.iq) [edw.hammad.farhan11@uoanbar.edu.iq](mailto:edw.hammad.farhan11@uoanbar.edu.iq)

تاريخ الاستلام 2025/10/20 تاريخ القبول 2025/11/22 تاريخ النشر 2026/3/31

### الملخص:

كان والي بني أمية الحجاج بن يوسف الثقفي يرى أن خلافة بني أمية خلافة شرعية، قائمة بواجبها خير قيام، وفي رأيه هذا يكفي لتكون دولة شرعية وطاعتها واجبة، والخروج عليها معصية تستوجب العقاب الصارم. ويعتقد أيضاً أن الخليفة عبد الملك بن مروان، خليفة عادل صالح ذو كفاية، لأنه ينهض بالمسؤوليات الكبرى للحكم ويضمن لأمة الإسلام أمانها في الداخل والخارج، ولا معنى لانتزاع الخلافة من بني أمية واعطائها لغيرهم ممن يقولون إنهم أحقّ بها. وكان يرى من قلة كفاية عبد الله بن الزبير، وأن لا وجه للمقارنة بينه وبين عبد الملك بن مروان، لذلك نراه لا يفرق بين معارضيه، وكلهم في نظره سواء أيّاً كانوا، ولا نستغرب اقدمه على القضاء على عبد الله بن الزبير وأن اعتصم بالكعبة. وفي هذا البحث سأحاول تسليط الضوء على حقيقة الأسباب التي دفعت الحجاج لمقاتلة ابن الزبير، وحلّه حرمة البيت الحرام، فضلاً عما تحلّى به ابن الزبير من مواقف شجاعة قادت به إلى أجله المحتوم.

الكلمات المفتاحية: الحجاج، ابن الزبير، عبد الملك، الكعبة.

### Between The Insistence of Al-Hajjaj and The Pride of Ibn

### Al-Zubayr: The Mangonel Violates the Sanctity of The Sacred House

Prof. Dr. Hammad Farhan Hammadi<sup>1</sup>

Assis. Prof. Dr. Ismail Mejbel Hamad<sup>2</sup>

Retired<sup>1</sup>

University of Anbar- College of Education for Women<sup>2</sup>

### Abstract:

Al-Hajjaj ibn Yusuf al-Thaqafi, the governor of the Umayyads, believed that the Umayyad caliphate was a legitimate caliphate, properly fulfilling its duties. In his view, this was sufficient for it to be a legitimate state whose obedience was obligatory, and rebellion against it was a sin warranting severe punishment. He also believed that Caliph Abd al-Malik ibn Marwan was a just, righteous, and capable caliph because he undertook the major

responsibilities of governance and ensured the security of the Islamic nation both internally and externally. There was no meaning in removing the caliphate from the Umayyads and giving it to others who claimed to be more entitled to it. He considered Abd Allah ibn al-Zubayr to be insufficiently capable and saw no basis for comparison between him and Abd al-Malik ibn Marwan. Therefore, he did not differentiate between his opponents; in his view, they were all the same regardless of who they were. It is not surprising that he took steps to eliminate Abd Allah ibn al-Zubayr, who had taken refuge in the Kaaba. In this study, I will attempt to shed light on the true reasons that led Al-Hajjaj to fight Ibn al-Zubayr and to violate the sanctity of the Sacred House, as well as the courageous stances of Ibn al-Zubayr that ultimately led to his inevitable fate.

**Keywords:** Al-Hajjaj, Ibn Al-Zubayr, Abdul Malik, Kaaba.

#### المقدمة:

ان تاريخ الدولة الإسلامية حالها حال تواريخ الأمم الأخرى غزيرة بالأحداث على المستوى السياسي والاجتماعي والحضاري وهنا في هذا البحث اردنا تسليط الضوء على إشكالية ظهور اكثر من خلافة إسلامية في البلاد الإسلامية وحدث صراع بين الطرفين كل منهم يرى انه احق بالخلافة الإسلامية وبعدم شرعية الطرف الاخر وهذا الصراع كان بين بني اميه وخلافتهم التي مقرها الشام وبين عبدالله بن الزبير وإعلان خلافته في مكة وهدفنا هو التعرف على تفاصيل اعلان خلافة ابن الزبير وكيف جرى صراعة مع الامويين وما ال الية مصيرة في آخر الامر وقد قسم البحث الى مفردات تناولت تفاصيل منذ بداية إعلانه للخلافة الى مصرعه على يد القائد الاموي الحجاج بن يوسف الثقفي.

#### التمهيد:

عندما بويع يزيد بن معاوية بالخلافة عام 60هـ / 679م، بايعه بعض الصحابة وامتنع آخرون عن مبايعته، وكان من بين الممتنعين الحسين بن علي بن ابي طالب وعبد الله بن الزبير اللذان صمما على المخالفة وخرجا من المدينة إلى مَكَّة فأقاما بها (1)، وقد شعر والي المدينة الأموي عمرو بن سعيد بخطرهما فوجَّه إليهما جيشاً بقيادة عمرو بن الزبير الذي انشق على أخيه، إلا أنَّ عبد الله بن الزبير تصدَّى وجماعة من أهل مَكَّة لهذا الجيش وأوقع به هزيمة منكرة وسجن قائده واقتص منه حتى مات تحت السياط (2)، وكان لهذا الحادث أثر كبير عظم معه شأن ابن الزبير في الحجاز واشتدَّ أمره وبعد

صيته، وإن كانت مكانة عبد الله بن الزبير ظلت دون مكانة الحسين بن علي في نفس الناس، فأثر الترتيب ولم يبد مما في نفسه شيئاً مع وجود الحسين (3).

تطورت الأحداث بعد ذلك على شكلٍ بدا أول الأمر أنه في صالح ابن الزبير، إذ خرج الحسين بن علي من مكة إلى العراق إذ استشهد في كربلاء عام 61هـ/680 م (4) على ما هو معروف. فأصبح عبد الله بن الزبير بذلك قائد المعارضة الوحيد في الحجاز ضد بني أمية. واتخذ من مكة ملاذاً آمناً له، واعتصم بها رافضاً إعطاء البيعة إلى يزيد بن معاوية (5)، وراح يُظهر عيوبه ويشتمه ويتهمه بشرب الخمر وينفر الناس عنه، وكان الناس يلتقون به فيبين لهم مساوئ بني أمية فيطنب في ذلك (6). ويبدو أن موقف ابن الزبير هذا قد شجّع أهل المدينة على الثورة على الحكم الأموي، فنقضوا بيعتهم ليزيد وأخرجوا بني أمية من المدينة إلى الشام، وقد شعر يزيد بتفاقم خطر المعارضة في الحجاز فأرسل إليهم حملة بقيادة مسن بن عقبة المري الذي تغلب على أهل المدينة في وقعة الحرّة عام (63هـ/682 م)، وأخضع أهلها وتوجّه بعد ذلك لإخضاع ثورة عبد الله بن الزبير في مكة، إلا أنه توفي في الطريق، فعهد بقيادة الجيش الأموي من بعده للحصين بن نمير السكوني، الذي ضرب الحصار على مكة وشرع في مهاجمتها، إلا أنه اضطر إلى فك الحصار والعودة ثانية إلى بلاد الشام، إثر وفاة يزيد بن معاوية في دمشق (7).

اغتنم عبد الله بن الزبير فرصة الفوضى السياسية التي أعقبت اعتزال معاوية الثاني الخلافة، والفرغ الكبير الذي أحدثه شغور هذا المنصب، فبادر إلى اعلان نفسه خليفة في مكة عام 64هـ/683 م، ونادى بالعودة بقواعد الحكم إلى الشورى وإلى ما كان متبعاً بصفة عامة زمن الخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم) (8)، إذ روي عنه قوله إنه خرج "غضباً لله ولرسوله والمهاجرين والأنصار من أثره معاوية وابنه يزيد بالفيء (9)، وإنه لم يرد إلا الإصلاح وإقامة الحق" (10).

وقد استهوت هذه الدعوة معظم أهل الحجاز الذين وجدوا فيها محاولة جادة لإعادة مركز الثقل السياسي الممتاز إلى بلادهم، كما كان الحال في عهد الدولة العربية الإسلامية في المدينة. كما استهوت دعوة ابن الزبير كثيراً من أنصار النهج الراشدي ومن الزعماء القيسيين ممن عرفوا آنذاك باسم الزبيرية الذين كانوا منتشرين في أرجاء الدولة العربية الإسلامية، بما في ذلك إقليم الشام ذاته، إذ عرف من أنصارهم هناك الضحاك بن قيس الفهري وناتل بن قيس الجذامي والنعمان بن بشير الأنصاري وزفر بن الحارث الكلابي (11). ولا شك أن عدداً من الزعماء القيسيين انضموا إلى جانب ابن الزبير

خوفاً من استمرار النفوذ اليمني المتمثل في حسان بن مالك بن بحدل الكلبي الذي كان من اشد أنصار بني أمية. ومهما يكن من أمر فإن معظم الأقاليم الإسلامية بايعت ابن الزبير، وكادت الجماعة الإسلامية أن تجمع عليه لولا قيام أنصار بني أمية بإعادة الحكم لبني أمية ومبايعه مروان بن الحكم خليفة في دمشق، وكان ذلك من نتائج المؤتمر الذي عقده في الجابية. (12)

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أنّ بعض المصادر لا سيما التي يغلب عليها الاتجاه الديني تعدّ خلافة عبد الله بن الزبير خلافة شرعية، وتنتظر إلى مروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان حتى مقتل ابن الزبير على أنهما خارجان عليه على اعتبار أنّ البيعة إنما تمتّ أولاً لعبد الله بن الزبير (13). لكن هذه النظرية المجردة لم يكن لها في الواقع التاريخي ذلك الأثر المنتظر، إذ ما فتئت الخلافة منذ مقتل علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) منصّباً يستأثر به صاحب القوة والغلبة من هذه الأسرة او تلك، وقد برزت هذه الحقيقة بشكل واضح بعد اعتزال معاوية الثاني الخلافة، الذي كان يعرف باسم ابي ليلي، حتى قال ارثم من بني فزار:

إنّي أرى فتنةً تغليّ مراحلها... والملك بعد أبي ليلي لمن غلبا (14).

وهذا أمر ينطبق تماماً على الصراع الذي نشب بين عبد الله بن الزبير وآل مروان الأمويين، وانتهى بانتصار المرواني انتصاراً حاسماً أسهم فيه الحجاج بن يوسف بدور كبير. وقد تميز هذا الصراع الدامي الذي جرى على أرض العراق والحجاز بالعنف والشدة، وذلك لأنّ كلاً من الجانبين كان يستهدف استئصال الآخر. وزاد من قوّة ابن الزبير بالإضافة إلى شخصيته ومكانته بين الصحابة والتابعين سيطرته على الأماكن الإسلامية المقدّسة في الحجاز، حيث تقام شعائر الحج التي تشترك فيها سنوياً اعداد كبيرة من المسلمين من كافة الأقاليم والأمصار. وكان عبد الله بن الزبير يغتتم هذه المناسبة ويأخذ البيعة منهم لنفسه دون الخليفة الأموي (15)، وهو امرٌ جعل الأمويين يتخذون كافة الوسائل للحيلولة دونه والقيام بمحاولات جادة للقضاء على دعوة ابن الزبير في الحجاز.

وقد لجأ الأمويون إلى وسيلتين لتحقيق هذا الهدف: الوسيلة الأولى محاولة فرض حصار على الحجاز وعدم السماح للحجاج في الأقاليم التي يسيطرون عليها بالتوجّه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج. وأمّا الوسيلة الثانية فهي اللجوء إلى استخدام القوة لتأكيد سيطرتهم على الأقاليم التابعة لابن الزبير، تمهيداً للقضاء عليه في عقر داره في الحجاز. ولا بدّ أن الخلفاء الأمويين ومؤيديهم أخذوا يبثون دعاوى في صفوف انصارهم تُظهر ابن الزبير بمظهر المتمرّد العاصي وتؤلّب قلوبهم عليه، كما

استخدموا وسائل الاغراء المالي والأمني والوعود الخلافة لتحويل أتباع ابن الزبير عنه واستقطابهم كما فعل عبد الملك خلال حملته المعروفة على العراق واتصاله برجال مصعب بن الزبير وقادته، وانتهى الأمر بمقتل مصعب وضياع العراق من يد ابن الزبير، وهو الاقليم الذي كان يستمد منه المال والرجال، وقد استخدم عبد الملك بن مروان ذات الوسائل ضد عبد الله بن الزبير في الحجاز. ويذكر اليعقوبي<sup>(16)</sup>: إن عبد الملك منع لهذا السبب أهل الشام من الحج والخروج إلى مكّة، فتذمر الناس من ذلك ذاكرين له ان حج بيت الله الحرام وهو فرض الله علينا؟ فذكرهم بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا ومسجد بيت المقدس)، فقصد بذلك ان يجعل مسجد بيت المقدس مقام المسجد الحرام، وان الصخرة التي وضع رسول الله قدمه عليها لما عرج به إلى السماء، تقوم مقام الكعبة، فبنى على تلك الصخرة قبة وعلّق عليها سطور الديباج ووضع لها سدنة وأخذ الناس بأن يطوفوا حولها كما يطوفون حول الكعبة، ويضيف أبو المحاسن<sup>(17)</sup> إلى رواية اليعقوبي: "أنّ عبد الله بن الزبير في خطبته في أيام منى وعرفة كان ينال من عبد الملك، ويذكر مساوئ بني أمية، وأنّ جدّه الحکم كان طريد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولعينه، فانصرف أكثر أهل الشام إلى ابن الزبير. لذلك حرم عبد الملك الناس من الحج فضجوا، فانشأ لهم القبة على الصخرة والجامع الأقصى ليبعدهم بذلك عن العمرة والحج". ويروي أبو المحاسن<sup>(18)</sup>: انّ عبد العزيز بن مروان أخا عبد الملك وواليه على مصر كان يُعرّف الناس بمصر ويقف بهم يوم عرفة. ومهما يكن من نصيب هاتين الروائيتين من الصحة<sup>(19)</sup>، فإنهما تدلان على أنّ عبد الله بن الزبير كان ينشط في مواسم الحج في الدعوة لنفسه ولدولته وأنّ ذلك تمّ ولا شك على حساب الخلفاء الأمويين وسمعتهم. وقد يكون هذا الأمر هو الذي جعل عبد الملك يمنع رعاياه من الذهاب إلى بلاد الحجاز وذلك كنوع من الحصار الاقتصادي والإعلامي ضد دعوة ابن الزبير ودولته بانتظار الفرصة المواتية للقضاء عليه. وهو الهدف الذي لم يغفل الخلفاء الأمويون لحظة واحدة منذ أن أعلن ابن الزبير نفسه خليفة في رجب عام 64هـ/684م<sup>(20)</sup> إلى أن قدّر للحجاج بن يوسف أن يخلص الأمويين نهائياً من هذا المنافس الخطير عام 73هـ/692م.

#### -الحملات الأموية على الحجاز:

سبقت حملة الحجاج على الحجاز حملات مماثلة لم تنجح في تحقيق أهدافها الكاملة، وإن كانت قد أنهكت قوى عبد الله بن الزبير، وأكّدت تصميم الخلفاء الأمويين على القضاء على دعوته. ففي عهد

يزيد بن معاوية (60-63 هـ / 680-683 م) أرسلت الحملة المشهورة بقيادة مسلم بن عقبة المرّي الذي احتل المدينة تاركاً أمر مَكَّة من بعده للحصين بن نمير الذي أثار الرجوع بجيشه إلى بلاد الشام بعد ما ترامى إليه نبأ وفاة يزيد، كما أسلفنا.

وعندما تولى مروان بن الحكم الخلافة الأموية أرسل حملة ثانية إلى الحجاز بقيادة حُبَيْش بن دلجة، كان الحجاج وأبوه في عداد أفرادها، ولم توفّق في اتمام مهمتها، ولكن مروان انتزع من دولة ابن الزبير مصر تاركاً مهمّة القضاء على الدعوة الزبيرية إلى ابنه عبد الملك.

ويذكر البلاذري<sup>(21)</sup>: أنّ عبد الملك بن مروان لما بويع بالخلافة أرسل جيشاً بقيادة عروة بن أنيف في ستة آلاف من أهل الشام إلى المدينة، وأمره ألاّ يحط على أحد، وان لا يلج المدينة نفسها وأن يعسكر خارجها، فكان ابن أنيف يدخل المدينة فيصلي الجمعة بالناس ثم يعود إلى معسكره، وظلّ على هذه الحال شهراً لا يبعث ابن الزبير لهم احداً ولم يلقوا كيداً، إلى أن أمرهم عبد الملك بالعودة الى بلاد الشام.

ويبدو أنّ هذه الحملة كانت بمثابة حملة استطلاعية استهدفت معرفة القوة الحقيقية لابن الزبير في الحجاز. وبعد ذلك بعث عبد الملك بن مروان بحملة ثانية إلى الحجاز بقيادة عبد الملك بن الحارث بن الحكم في اربعة آلاف، فبلغت وادي القرى، إلاّ أنّها لم تحقق نجاحاً كبيراً، إذ قُتل عدد من أفرادها في وقت لاحق، على يد القوات الموالية لابن الزبير<sup>(22)</sup>.

ولم يكتف عبد الملك بن مروان بذلك، بل وجّه طارق بن عمرو مولى عثمان بن عفان (رضي الله عنه) على رأس قوّة عسكرية للمرابطة بين أيلة ووادي القرى، ليمنع عمال ابن الزبير من التوسع ويحفظ ما بينه وبين الشام ويعالج خلافاً إن ظهر له على حد قول البلاذري<sup>(23)</sup>.

وقد هدف عبد الملك من ذلك إلى حماية بلاد الشام من أي غزو قد يفكر به ابن الزبير لها، وضرب حصار عليه في الحجاز. وبالفعل فقد نجح طارق بن عمرو في الايقاع بجيشين لابن الزبير، احدهما حجازي بقيادة ابي بكر بن أبي قيس، والآخر بصري بقيادة رجل من البصرة<sup>(24)</sup>.

ورغم مما حدثته هذه الحملات على الحجاز من إضعاف قوّة عبد الله بن الزبير، إلاّ أنّها لم تحقق نجاحاً حاسماً، وتبين لعبد الملك من خلالها أنّه لا بدّ للقضاء على ابن الزبير في الحجاز من استعادة العراق أولاً، الذي كان عمّاله الزبيريون يمدّون الحجاز بالجيوش والأموال للدفاع عنه في وجه الحملات الأموية. ولعلّ هذا هو الذي جعل عبد الملك يقود بنفسه حملة العراق التي كان الحجاج من بين قادتها،

إذ انتهت بمقتل مصعب بن الزبير، أبرز قادة ابن الزبير ومعاونيه. وقد أدى نجاح حملة العراق إلى زعزعة قوة ابن الزبير، كما يتضح في خطبته التي نعى فيها أخاه إلى أهل مكة، والتي بين فيها ان مصعب من أعوانه، وأن أهل العراق أصحاب غدر ونفاق وانهم سلموه وباعوه بأقل الثمن (25).

- اختيار الحجاج نداء لابن الزبير:-

يتضح مما سبق أن الطريق إلى الحجاز أصبح ممهداً بعد إخضاع عبد الملك للعراق، إذ وقع اختياره على الحجاج بن يوسف لقيادة حملة الحجاز والقضاء نهائياً على عبد الله بن الزبير ودعوته وهنا لا بد من التساؤل حول أسباب هذا الاختيار ودواعيه، ولماذا لم يتوجه عبد الملك نفسه على رأس حملة الحجاز، ولعل ذلك يعود إلى عدة أسباب نجملها فيما يلي:

أولاً - ظهور كفاءة الحجاج القيادية في ضبط الجيوش وتوجيهها للقتال مما جعله موضع تقدير وثناء من قبل عبد الملك (26).

ثانياً - إدراك عبد الملك أن مصير عبد الله بن الزبير أصبح في حكم المقرر بعد أن فقد جميع الأقاليم والأموال التي كانت تمده بالمال والرجال، وأن الأمر ليس من الخطورة بحيث يستدعي ذهابه بنفسه إلى الحجاز (27).

ثالثاً - عدم رغبة عبد الملك بالبقاء مدة طويلة بعيداً عن بلاد الشام موضع قوته، فضلاً عن تخوفه من احتمال قيام عصيان آخر عليه في دمشق كما فعل عمرو بن سعيد بن العاص، لا سيما وأن اليمانية هناك كان هواها مع خالد بن يزيد.

رابعاً - معرفة عبد الملك بطبيعة خصمه عبد الله بن الزبير، وأنه لا يمكن أن يستسلم بسهولة، وأن الأمر لا بد وأن ينتهي بحصاره وقتله والتضييق على أهل المدينة ومكة، فأراد ألا يقلد نفسه هذه المهمة التي ستؤثر على سمعته بين المسلمين، فضلاً عن أنه كان شخصية معروفة للكثيرين من أهل الحجاز، وسبق له أن عارض حملة يزيد بن معاوية على الحجاز (28). فأراد أن يقلد رجلاً من غير بني أمية

للقيام بهذا العمل فاختر الحجاج، الذي بدأت نعمة المسلمين عليه منذ اضطلاع به هذه المهمة

وأخيراً، فإن المصادر (29) تحدثنا أن عبد الملك بن مروان نذب الناس بعد أخذه العراق وقتله مصعباً إلى قتال عبد الله بن الزبير، وأن الحجاج بن يوسف تقدم من الخليفة الأموي وقال له: "أنا له يا أمير المؤمنين" وذكر إنه رأى في منامه أخذ عبد الله بن الزبير فسلخه فطلب ان يبعثه الية وانه ضامن له قتله. فقال له عبد الملك: "أنت له فاخرج إليه" (30). فسواء كانت رؤيا الحجاج صحيحة أم أنه تقولها (31)

ليعزز حجته أمام عبد الملك، فإنَّ الحجاج كان يرمي من وراء تقدّمه لقيادة حملة الحجاز أن يقدّم خدمة كبيرة للأمويين يظهر فيها كلّ مواهبه وولائه علّ ذلك يقدّمه لديهم، وقد كان.

ويذكر صاحب الأخبار الطوال<sup>(32)</sup>: أنّ عبد الملك جهّز الجيوش بعد فراغه من مصعب لمحاربة عبد الله بن الزبير، وأتته عهد بالقيادة إلى قدامة بن مظعون قبل الحجاج بن يوسف، ثم ما لبث أن وجّه الحجاج لهذه المهمة وعزل قدامة دون أن يذكر سبباً لذلك.

- خروج الحجاج على رأس الجيش:-

تكاد المصادر تجمع على أنّ الحجاج خرج من العراق عام (72هـ/691 م) على رأس قوّات شاميّة قاصداً الحجاز، إلّا أنّ هذه المصادر تختلف في تقدير عدد هذه القوّات التي رافقت الحجاج في حملته، فابن عبد ربّه يقدرها بألف وخمسمائة رجل<sup>(33)</sup>، في حين يروي ابن سعد<sup>(34)</sup> أنّ عددها ألفان. وقد لاحظ الواقدي اختلاف الروايات في هذا الموضوع فقال في رواية أوردها صاحب أنساب الاشراف<sup>(35)</sup>: "لما قتل عبد الملك، مصعب بن الزبير ودخل الكوفة ارسل منها الحجاج ابن يوسف إلى عبد الله بن الزبير في جيش اختلف في تعداده قيل ألفين او ثلاثة آلاف او خمسة آلاف من أهل الشام وذلك في سنة اثنتين وسبعين". إلّا أنّ اليعقوبي المعروف بميوله العدائية للأمويين قد استغل هذا العدد فزاده إلى عشرين ألفاً آخرين فصار جيش الحجاج أربعين ألفاً<sup>(36)</sup>. وأضاف اليه السيوطي<sup>(37)</sup> عشرين ألفاً آخرين فصار جيش الحجاج أربعين ألفاً. وقد لا يخلو مثل هذا الرقم من مبالغة لا سيما وأنّ عبد الملك كتب إلى طارق بن عمرو الذي كان يرباط في شمال الحجاز يأمره باللاحق بالحجاج، فسار في أصحابه، وعددهم خمسة آلاف رجل، وقد انضمّ إلى قوّات الحجاج<sup>(38)</sup>. كما أنّ عبد العزيز بن مروان وجّه حملة بحرية من مصر إلى الحجاز ضمّت ثلاثة آلاف رجل لمعاونة الحجاج في مهمّته<sup>(39)</sup>. وأغلب الظن أنّ قوّات الحجاج لو كانت تضم أصلاً اربعين ألف رجل لما احتاج إلى كلّ هذه الامدادات، لا سيما إذا علمنا أنّ الحجاز ذاته لم يكن في ذلك الوقت مركز لتجمع القوى البشريّة التي هاجر عدد كبير منها إلى الأقاليم والأمصار. ويرجح أنّ الحجاج بن يوسف خرج من العراق على رأس بضعة آلاف من الجند الشامي الذي كان برفقة عبد الملك وأنّ الخليفة أمدهُ لذلك في وقت لاحق ببضعة آلاف أخرى من القوّات الأموية المرابطة في شمال الحجاز ومصر. ورغم الصعوبة في تحديد القوّات التي اجتمعت تحت إمرة الحجاج في الحجاز، لاختلاف المصادر في تحديدها، إلّا أنّ تلك القوّات كانت كافية لتحقيق أهداف الحملة الحجازيّة.

ويحدثنا الطبري وابن الأثير<sup>(40)</sup>، أنّ عبد الملك بن مروان كتب أماناً إلى ابن الزبير ومن معه إن دخلوا في طاعته وأرسله مع الحجاج.

كما أورد البلاذري<sup>(41)</sup> رواية لعوانة بن الحكم، تفيد بأنّ عبد الملك زوّد الحجاج قبل مسيره إلى الحجاز بتعليمات أشار بها الهيثم بن الأسود النخعي عندما قال له: "يا أمير المؤمنين أوص هذا الغلام الثقفي بالكعبة ومُرّه ألا ينقر أطيّارها ولا يهتك أستارها ولا يرمي أحجارها، وأن يأخذ على ابن الزبير بشعابها وفجاجها وانفاقها حتى يموت فيها جوعاً أو يخرج عنها مخلوعاً"، فقال عبد الملك للحجاج: "افعل ذلك واجتنب الحرم وانزل الطائف".

- الحجاج يتخذ الطائف مقراً لعسكره: -

بهذه التعليمات الواضحة سار الحجاج إلى الحجاز عن طريق العراق ومعه بضعة آلاف من جند الشام وذلك في جمادي الأولى (72هـ / أكتوبر 691م) فلم يقرب للمدينة ولا طريقها، وسار على الربذة حتى أتى الطائف في شعبان (72هـ / يناير 692م) وأقام هناك حوالي الشهرين، إذ كان يرسل البعوث إلى عرفة ويرسل ابن الزبير إليه أصحابه فيقتلون هناك، وكلّ ذلك والظفر بجانب أصحاب الحجاج<sup>(42)</sup>. فكان الحجاج قد اتخذ من الطائف قاعدة حربية له لمناعتها ولموقعها الاستراتيجي في المنطقة، وقد كان عبد الملك يدرك هذه الميزات للطائف ويعرف ولاءها التقليدي للأُمويين، مما جعله يشير على قائده بالنزول فيها، بالإضافة إلى أنّ الطائف كانت مسقط رأس الحجاج وموطن أهله وقبيلته. لكن المناوشات المتفرقة التي كانت تتم بين قوّات الجانبين لم تؤدّ إلى نتيجة حاسمة، إذ ظلّ عبد الله بن الزبير متحصناً بمكة لا يناله كثير أذى. ويبدو أنّ اقتراب موسم الحج جعل الحجاج يوجس خيفة من ازدياد قوّة ابن الزبير، والتفاف حجاج بيت الله الحرام حوله مما قد يشجعه على شن هجوم معاكس على قوّات الحجاج لإخراجها من الحجاز. وهنا بعث الحجاج بن يوسف بكتاب إلى الخليفة عبد الملك بن مروان يستأذنه في قتال ابن الزبير ودخول الحرم عليه ويستمدّه بالرجال ذاكراً له متى ما ترك ابن الزبير وكفّ عنه ولم يأمر بزحمه ومصادمته كثر عدده وعُدته وسلاحه، وكان الحجاج يهدف من وراء ذلك إلى الانتهاء من أمر ابن الزبير في أقصر وقت ممكن حتى ينال الخطوة السياسية عند عبد الملك ويتقدّم في دولته، فردّ عليه عبد الملك بأن يفعل ما يراه مناسباً<sup>(43)</sup>.

-الحجاج يتذرع بأداء فريضة الحج لمحاصرة ابن الزبير :-

كتب عبد الملك إلى طارق بن عمرو يأمره بأن يلتحق بمن معه بالحجاج، فسار اليه في خمسة آلاف من أصحابه متوجهاً إلى المدينة فسيطر عليها بسهولة وأخرج عامل ابن الزبير منها ونصب عليها رجلاً من أهل الشام يقال له ثعلبة، وواصل سيره للالتحاق بقوات الحجاج (44). وبين صاحب الإمامة والسياسة (45): إنَّ عبد الملك اخذ يرسل الجيوش إلى الحجاج افواجا حتى توافى الناس عنده بالقدر الذي يمكنه على قتال عبد الله بن الزبير. وربما يكون عبد الملك قد كتب في هذا الوقت إلى أخيه عبد العزيز بن مروان في مصر لإرسال نجدة إلى الحجاج، إذ تذكر بعض المصادر (46)، أنَّ هذه النجدة التي تضم ثلاثة آلاف رجل قد أبحرت من مصر إلى الحجاز عام 691/هـ 72م. ولما تكاملت قوات الحجاج في الطائف أصدر إليها أمراً بالتجهز للحج ولكنه في ذات الوقت أبقى قواته في حالة تأهب يحملون السلاح كما أحضر معه أدوات الحصار وآلات المنجنيق وجعلها تتقدم مسيرته وذلك استعداداً للطوارئ (47).

ويبدو أنَّ الحجاج هدف من وراء ذلك إلى دخوله مكَّة مع أصحابه حجاجاً فإذا رفض ابن الزبير ادخالهم كانت لهم عليه حجة، واستخدموا السلاح في إرغامه على الاستسلام والدخول في الطاعة. وتذكر المصادر (48)، أنَّ الحجاج نزل بقواته عند بئر ميمون (49) في منى مطلع ذي القعدة عام (692م/هـ 72) وبدأ في حصار مكَّة. وهنا عرض الحجاج على ابن الزبير الأمان وبذل له العهد فأبى أن يقبله (50). فلما رفض الأخير الدخول في طاعة عبد الملك بدأ الحجاج يُشدّد حصاره على ابن الزبير وقواته محاولاً السيطرة على جبل أبي قبيس الذي يطلّ على جميع مكث لينصب آلات المنجنيق فوقه.

-الحجاج يرمي الكعبة بالمنجنيق:-

ويختلف المؤرخون في تحديد الوقت الذي بدأ فيه الحجاج بضرب مكَّة بحجارة المنجنيق من على جبل قبيس. فعوانة بن الحكم يرى أن القصف كان قبيل موسم حج عام 72هـ، إذ يقول أنَّ الحجاج " أمر أصحابه أن يتجهزوا للحج، ثم أقبل من الطائف وقدم مقدمته فنصبوا المنجنيق على جبل أبي قبيس، فلما هبطوا إلى منى رأى من في عسكر الحجاج المنجنيق منصوبة فقال الأقبيل بن شهاب الكلبي الذي فرّ من جيش الحجاج وانضم إلى ابن الزبير:"

لعمر أبي الحجاج لو خفت ما أرى  
 فلم أر جيشاً عُزَّ بالحجِّ قبلنا  
 خرجنا لبيت الله نرمي ستوره  
 دلفنا له يوم الثلاثاء من منى  
 فألاً ترحنا من تقيف وملكها  
 من الأمر ما ألفت تعذلني نفسي  
 ولم أر جيشاً مثلنا غير ما خرس  
 وأحجاره زفن<sup>(51)</sup> الولائد في العرس  
 بجيشٍ كصدرِ الفيل ليس بذئ رأس  
 نصل لأيام السباسب والنحس

ويمضي عوانة في روايته: إنَّ الحجاج حاصر ابن الزبير في المسجد ضيق عليه بالمنجنيق، وأمر على رماثها رجالاً من خثعم، فاخذ يرمي البيت وهو يقول:

خطارة مثل الغنيق<sup>(52)</sup> المزبد نرمي بها عواذ هذا المسجد<sup>(53)</sup>.

ويذكر البلاذري<sup>(54)</sup> رواية اخرى للواقدي تؤيد ما جاء في الرواية الأولى، وهي أنَّ عبد الله بن عمر الذي حجَّ في تلك السنة، طلب من الحجاج أن يكفَّ عن الرمي بالمنجنيق لأن حجارتها منعت الناس من الطواف، فأوقف الحجاج الرمي، حتى انتهى الناس ما يجب عليهم بمكَّة من مناسك الحج، وغادروها متوجهين إلى منى وعرفة.

ولا بدَّ في حالة صحَّة هذه الروايات أن يكون الحجاج، قد أمر أصحابه بالتجهُّز إلى الحج، وطلب من ابن الزبير ألاَّ يحول بين أصحابه ودخول مكَّة ليبدأوا مناسك الحج بالطواف، وأنَّ ابن الزبير رفض هذا الطلب<sup>(55)</sup>. على اعتبار أنَّ جنود الحجاج جاؤا محاربين لا محرمين، وأنَّهم يستهدفون احتلال مكَّة واخضاع العائذ بالبيت<sup>(56)</sup>. وهنا أظهر الحجاج نفسه بمظهر المدافع عن حقِّه وحقِّ أصحابه في الاصرار على دخول مكَّة، فاستخدم القوة في رمي ابن الزبير واصحابه بالحجارة من فوق جبل أبي قبيس. ولا بدَّ ان نذكر أن الحجاج نفسه منع ابن الزبير من الخروج في موسم الحج إلى منى وعرفات، الأمر الذي جعل عبد الله بن الزبير يرفض طلباً من الحجاج أن يسمح له بعد وقوفه بعرفات أن يطوف بالبيت طواف الافاضة، مما زاد في توتر العلاقات بين الجانبين.

ونلاحظ أنَّ الطبري<sup>(57)</sup> لم يورد في حوادث سنة 72هـ من الروايات ما يدلُّ على أنَّ الحجاج قصف مكَّة في بداية موسم الحج، بل أورد رواية للواقدي في هذه السنة اورد صاحبها: بأنه حج سنة اثنتين وسبعين فقدم مكَّة فدخلها من أعلاها فوجد أصحاب الحجاج وطارق فيما بين الحجون إلى بئر ميمون، فطاف بالبيت وبالصفا والمروة، ورأى الحجاج يحجُّ بالناس ووقف بالهضاب من عرفة على فرس، وعليه الدرع والمغفر ثم صدر فعدل إلى بئر ميمون، ولم يطف بالبيت واصحابه يحملون السلاح. وليس

في هذه الرواية ذكر للرّمي من أبي قبيس، أو أنّ الراوي قد شاهد مجانيق على جبال مَكَّة، وإلى ذلك يذهب ابن كثير (58) ويكاد يصرّح بمثل ذلك صاحب الامامة والسياسة (59) إذ روى: " إنّ الحجاج قد سار من الطائف فنزل منى وحجّ بالناس وفي الوقت الذي كان عبد الله بن الزبير محاصر بمَكَّة، ثم ان الحجاج نصب المنجنيق على جبل أبي قبيس ونواحي مَكَّة كلها فرمى أهل مَكَّة بالحجارة "

وإذا أنّ الحجاج قدِمَ مَكَّةَ ومعه وصيّة من عبد الملك بن مروان توصيه خيراً بالكعبة وألا ينقر أطيارها ولا يهتك أستارها ولا يرمي أحجارها، وأن يأخذ على ابن الزبير بشعابها وفجاجها وانفاقها حتى يموت جوعاً أو يخرج عنها مخلوعاً (60)، استبعدنا أن يلجأ الحجاج أول نزوله مَكَّة إلى نصب المنجنيق على جبل أبي قبيس وضرب الكعبة ومَكَّة بالحجارة للمرة الثانية من دخول مَكَّة (61). ويرجّح أنّ وساطة عبد الله بن عمر في وقف القصف تمت في هذا الوقت، وقد أشار إلى ذلك بوضوح ابن الأثير (62) إذ ذكر: ان عبد الله بن عمر حج تلك السنة فأرسل إلى الحجاج: بأن يتق الله ويكف الحجارة عن الناس، حرمة للشهر حرام. ولان وفود الله قدمت من أقطار الأرض ليؤدوا فريضة الله، وأنّ المنجنيق قد منع الناس من الطواف فعليه الكف عن الرمي حتى يقضوا ما يجب عليهم بمَكَّة، فتوقف الرمي حتى عاد الناس من عرفات واكملوا الطواف. ولم يمنع ابن الزبير الحجاج من الطواف والسعي، فلما فرغوا من طواف الزيارة نادى منادي الحجاج "انصرفوا إلى بلادكم فإننا نعود بالحجارة على ابن الزبير الملحد" وهكذا توقّف القصف فترة حتى اتمّ الناس باقي مناسك الحج وطافوا طواف الافاضة وأدى المسلمون فريضتهم، وبعد ذلك اشتدّ حصار الحجاج لابن الزبير والرمي بالمنجنيق، ويذكر ابن كثير (63): أنّ الحجاج كان معه خمسة مجانيق وأنه ألحّ على مَكَّة بالرمي من كلّ اتجاه، وقطع عنهم الميرة والماء واخذت الحجارة تقع. في الكعبة والحجاج ينادي بأصحابه: يا أهل الشام الله الله في الطاعة، فيشتدّ حملهم على قوّات ابن الزبير.

ويحدثنا المسعودي (64) أنّ الحجاج كتب بعد أن أتمّ له حصر ابن الزبير ارسل كتاباً إلى عبد الملك يخبره فيه بالوضع العسكري لقوّاته وموضعا له انه ظفرت بأبي قبيس " فلما ورد كتابه على عبد الملك بحصار ابن الزبير بمَكَّة والظفر بأبي قبيس كبرّ عبد الملك فكبرّ الذين كانوا معه في داره ووصل التكبير بمن في جامع دمشق فكبروا ثم بأهل الأسواق فكبروا ثم سألو عن الخبر، فقيل لهم أنّ الحجاج حاصر ابن الزبير بمكث وظفر بأبي قبيس فقالوا:

لا نرضى حتى يحمله الينا مكبلاً على جمل يمرُّ بنا في الأسواق

ومهما كان نصيب هذه الرواية من الصحة فإنها تدلُّ على أنَّ الحجاج لم يسيطر على جبل أبي قبيس بسهولة، وأنَّ سيطرته على هذا الجبل الاستراتيجي رجَّح الكفة نهائياً إلى جانب الجيش الأموي، مما جعل الخليفة بدمشق وأنصاره يبتهجون دلالة على اقتراب النصر والظفر.

ويقال أنَّ عبد الملك بن مروان لم يكتف بذلك بل بعث بوصية جديدة إلى الحجاج وهو يحارب ابن الزبير وكتب إليه يوصيه بما أوصى به البكري زيداً. وذكر اليعقوبي: أنَّ الحجاج وقف خطيباً يسأل ويستفهم عن وصية البكري لزيداً ومن يعرفها يعطيه عشرة آلاف درهم، فقام رجلٌ من القوم، فقال: أنا أدري، فدعا الحجاج بالنقود إليه، فقال أبياتاً من الشعر هي وصية موسى بن جابر الحنفي لابن عمه زيد:

أقول لزيد لا تترتر فإنهم  
يرون المنايا دون قتلك أو قتلي  
فإن وضعوا حرباً فضعها وأن أبوا  
فشب وقود النار بالحطب الجزل  
فإن عصت الحرب الضروس بنابها  
فعرضة حدِّ الحرب مثلك أو مثلي (٦٥)

فقال الحجاج بعد أن سمع وصية عبد الملك: صدق أمير المؤمنين عرضة نار الحرب مثلي أو مثله (٦٦).

وهذه الوصية تؤكد وصيته الأولى والتي تطلب من الحجاج الكف عن قتال ابن الزبير إذا استسلم، ولكنها تشدد على ضرورة مواصلة الحرب بضراوة إذا استمر ابن الزبير في رفضه الأمان والدخول في الطاعة. وهي بالإضافة إلى ذلك تشد همة الحجاج وتؤكد ثقة الخليفة الأموي به. وقد يتساءل البعض كيف يكتب عبد الملك إلى الحجاج بمثل هذه الوصية وهو كما يروى كان قد عارض في الحملة التي أرسلها يزيد بن معاوية إلى الحجاز. والرَّد على ذلك يتلخص في أنَّ عبد الملك كان يعتقد بأنَّه الخليفة الشرعي وأنَّه لا يوجد أحد من معاصريه أصلح للخلافة منه (٦٧)، ثم أنَّ عبد الملك عارض حملة يزيد عندما كان خارج الحكم، أمَّا الآن فهو على رأس السلطة، ولا بدُّ أنَّ كثيراً من الأفكار المجردة التي كان يحملها قبل الحكم قد تغيرت عندما وصل إلى الخلافة. وهذه ظاهرة كما يرى فلهاوزن (٦٨): تمرُّ بها المعارضة في كثير من الأحيان. فالسياسة عند تطبيقها على حدِّ قوله تبتعد كثيراً عن الفكرة التي تقوم عليها، لأنَّ تقديرها للأشياء يكون في أول الأمر بحسب الإمكان لا بحسب الواقع. والذي يهمننا من كلِّ ذلك أنَّ حصار الحجاج لابن الزبير ومحاولته اقتحام مكة عليه إنما كانت بعلم عبد الملك وموافقته ورضاه.

طالت مدة حصار الحجاج بن يوسف لعبد الله بن الزبير في مكة، وتختلف المصادر في تحديد مدة هذا الحصار، فيذكر بعضها أنّ الحصار قد امتدّ أكثر من سبعة شهور<sup>(69)</sup>، من مطلع ذي القعدة عام 72هـ إلى جمادى الآخرة 73هـ / مارس 692 إلى 3 نوفمبر 692م. وهو ما نرجحه، لأنّ فترة الحصار الأخيرة كما تقول المصادر<sup>(70)</sup> كانت وقت أمطار وريعود وصواعق مما يؤكّد أن الفصل كان شتاء. أما المصادر الأخرى<sup>(71)</sup> فتقدّر الحصار بسبعة شهور، وهي تختلف في تحديد بداية الحصار ونهايته، فمنها ما يذهب إلى أنّ الحصار بدأ في ذي الحجة، ومنها ما يقول إنّه انتهى في جمادى الأولى.

- اثر الحصار على ابن الزبير واصحابه:-

أدى طول مدة الحصار هذه إلى زيادة قوّة الحجاج وضعف قوى ابن الزبير، إذ كانت المؤن والامدادات لا تنفك تردّ على الحجاج من دمشق مما عزّز قوّته ورفع معنويات جنوده، ويذكر الطبري عن رواية الواقي عن شاهد عيان<sup>(72)</sup>: "أنّه رأى الطعام عند جند الحجاج كثيراً وشاهد القوافل تأتي من الشام محمّلة بالمؤن، الكعك والسويق والدقيق، ويضيف قائلاً: ورأيت أصحابه مخاصيب - أي كثر طعامهم وماءهم - ولقد ابتعنا من بعضهم كعكاً بدرهم فكفانا إلى أن بلغنا الجحفة<sup>(73)</sup> وإنّا لثلاثة نفر". وفي هذه الرواية دلالة على توقّر المؤن عند جيش الحجاج والرخاء النسبي الذي كانوا عليه.

أمّا الوضع بالنسبة لابن الزبير فكان مختلفاً تمام الاختلاف، وأدى طول الحصار إلى تضعف قواه الاقتصادية والعسكرية، إذ لم تعد تصل إلى مكة من الخارج امدادات أو مؤن، لا سيما وأنّ مكة كانت تعتمد في اقتصادها على ما يرد إليها من الأقاليم والأمصار. وقد نجم عن ذلك قلّة في الموارد الغذائية وارتفاع كبير في أسعارها حتى بيعت الدجاجة كما يقول الواقي بعشرة دراهم، ومدّ الذرة بعشرين درهماً، كما اضطرّ بعض أصحاب ابن الزبير إلى أكل لحوم البراذين خلال مدة الحصار، في الوقت الذي كانت فيه مستودعات ابن الزبير مملوءة قمحاً وشعيراً وذرة وتمرّاً لا ينفق منها إلا ما يسدّ الرمق حتى لا تنتضب فتضعف نفوس أصحابه<sup>(74)</sup>.

- ضعف جبهة ابن الزبير:-

وزاد من ضعف جبهة عبد الله بن الزبير أنّه لم يحسن الاستفادة من فترة الهدنة التي قبلها الحجاج بعد وساطة عبد الله بن عمر، وذلك عن طريق كسب عدد كبير من الحجاج الذين دخلوا مكة لاداء مناسك الحج. فقد وفدت على ابن الزبير جموع من الناس ليقاتلوا معه اعظاماً للبيت وحرمة، فيهم قوّة مخن الاعراب لم يكونوا كاملي السلاح، وطلبوا منه ان يعينهم على قتال القوّة الأموية، إلا أنّ ابن الزبير

رَدَّهُمْ ونَفَرَهُمْ مِنْهُ وَقَالَ لَهُمْ: " يَا مَعْشَرَ الْأَعْرَابِ لَا قَرِيبَكُمْ اللَّهُ، فَوَاللَّهِ إِنَّ سِلَاحَكُمْ لَرِثٌ وَأَنَّ حَدِيثَكُمْ لَغَثٌ وَإِنَّكُمْ لَعِيَالٌ فِي الْجَدْبِ وَأَعْدَاءٌ فِي الْخَصْبِ " فَتَفَرَّقُوا عَنْهُ (75). وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونُوا قَدْ انضَمُّوا إِلَى صَفُوفِ الْحَجَّاجِ. وَاتَّخَذَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ مَوْقِفًا مِمَّاثِلًا عِنْدَ رَفْضِ مَسَاعِدَةِ جَمَاعَةٍ مِنَ الْخَوَارِجِ قَدِمَتْ لِلدَّفَاعِ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ بِحِجَّةِ أَنْ هَؤُلَاءِ الْخَوَارِجُ يَبْغِضُونَ عِثْمَانَ وَقَالَ: وَاللَّهِ مَا أَحَبَّ أَنْ اسْتَظْهَرَ عَلَيَّ عَدُوِّي بِمَنْ يَبْغِضُ عِثْمَانَ، وَلَا بَأْنَ أَلْقَى اللَّهَ إِلَّا نَاصِرًا لَهُ؛ وَجَعَلَ يَمَاكِرُهُمْ (76)، فَتَفَرَّقَ الْخَوَارِجُ عَنْهُ، وَأَدَّى ذَلِكَ إِلَى اخْتِلَالِ عَسْكَرِهِ وَتَرَاجُعِ قُوَّاتِهِ وَتَقَدُّمِ عَدُوِّهِ مِنْهُ حَتَّى قَاتَلَهُ فِي الْمَسْجِدِ. يُضَافُ إِلَى ذَلِكَ أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْأَحْبَاشِ الَّذِينَ قَدِمُوا مِنَ الْحَبَشَةِ لِلْقِتَالِ مَعَ ابْنِ الزُّبَيْرِ لَمْ يَسْتَطِيعُوا الصُّمُودَ طَوِيلًا فِي مِيدَانِ الْمَعْرَكَةِ رَغْمَ بِلَائِهِمْ فِي الرَّمَايَةِ أَوَّلَ الْأَمْرِ وَذَلِكَ عِنْدَمَا انْتَهَى بِهِمْ إِلَى مَوَاجَهَةِ جُنْدِ الشَّامِ بِالسِّيُوفِ (77).

وَقَدِ وُجِّهَتْ إِلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ انْتِقَادَاتٌ مَبَاشِرَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ عَلَى سُوءِ سِيَاسَتِهِ وَتَنْفِيرِهِ النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِ وَبِخَاصَّةِ الْخَوَارِجِ، فَقَالَ لَهُ أَحَدُهُمْ: " عَجَبًا لَكَ وَلِمَا صَنَعْتَ لَهُؤُلَاءِ الْقَوْمِ وَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْبِلَاءِ الْحَسِينِ وَالْأَثَرِ الْجَمِيلِ، هَلَّا سَكَتَ عَنْهُمْ وَاحْتَمَلْتَهُمْ إِلَى أَنْ يَصْنَعَ اللَّهُ وَتَضَعُ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا؟! " (78).

- جبهة الحجاج القوية ومحاولته استمالة ابن الزبير -

أَمَّا الْحَجَّاجُ بْنُ يُوْسُفَ فَنَرَاهُ حَتَّى فِي فِتْرَةِ اشْتِدَادِ الْحِصَارِ لَا يَنْفِكُ عَنِ تَوْجِيهِ النِّدَاءَاتِ السَّلْمِيَّةِ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ وَأَصْحَابِهِ يَسْتَمِيلُهُمْ فِيهَا عَارِضًا عَلَيْهِمْ أَمَانَ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَالِدُخُولِ فِي طَاعَتِهِ (79). فَكَانَ يَنَادِي عَبْدِ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ قَائِلًا: " وَيْلَكَ يَا ابْنَ ذَاتِ النُّطَاقِينَ إِقْبَلِ الْأَمَانَ وَادْخُلِ فِي طَاعَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ " (80) ثُمَّ يُوَجِّهَ نِدَاءَهُ إِلَى النَّاسِ: " عَلَامٌ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ؟ مَنْ خَرَجَ إِلَيْنَا فَهُوَ آمِنٌ، لَكُمْ عَهْدُ اللَّهِ وَمِيثَاقُهُ وَفِي حَرَمِ اللَّهِ وَأَمْنِهِ. وَرَبَّ هَذِهِ الْبَنِيَّةِ لَا أُعَدُّ بِكُمْ وَلَا لَنَا حَاجَةٌ فِي دِمَائِكُمْ " (81). وَيُرَى بَعْضَ الْبَاحِثِينَ أَنَّ الْحَجَّاجَ بْنَ يُوْسُفَ اتَّبَعَ مَعَ ابْنِ الزُّبَيْرِ وَأَصْحَابِهِ ذَاتَ الْإِسْلُوبِ الَّذِي اتَّبَعَهُ عَبْدِ الْمَلِكِ مَعَ مَصْعَبِ أَخِيهِ فِي الْعِرَاقِ عِنْدَمَا رَاسَلَ أَصْحَابَهُ وَأَعْطَاهُمُ الْأَمَانَ وَمَنَّاهُمْ لِيَفْرَقَهُمْ مِنْ حَوْلِهِ (82).

وَلَمْ يَغْفَلِ الْحَجَّاجُ وَهُوَ يَعْضُضُ عَلَى أَصْحَابِ ابْنِ الزُّبَيْرِ الْأَمَانَ وَالْأَمَانِي أَنْ يَسْتَنْهَضَ هَمُّ أَصْحَابِهِ وَيَقْوِيَ مِنْ رُوحِهِمُ الْمَعْنَوِيَّةِ وَيَعْظُمَ عِنْدَهُمْ أَمْرُ الْخِلَافَةِ وَطَاعَةُ الْخُلَفَاءِ (83). وَيَقُولُ: يَا أَهْلَ الشَّامِ اللَّهُ اللَّهُ فِي طَاعَةِ إِمَامِكُمْ؛ فَيَشْتَدُّونَ الشَّدَّةَ الْوَاحِدَةَ جَمِيعًا (84).

- أيام الحصار الأخيرة:

وتصوّر لنا المصادر (85) الأيام الأخيرة من حصار عبد الله بن الزبير، حيث اشتدّ رمي مَكَّة بخمسة من المجانيق (86) من كلّ مكان وجعلت الحجارة تقع في الكعبة حتى ارتجت ووهت. وكانت الشهور الأخيرة من فترة الحصار أيام مطر وبرق ورعد وسماء ملبّدة بالغيوم. ويروى أنّ صاعقة وقعت آنذاك على واحد من المجانيق فأحرقتة وقتلت من رماته اثني عشر رجلاً من أصحاب الحجّاج، فذعر أهل الشام وتوقفوا عن القتال ظناً منهم على ما يبدو أنّ ذلك علامة على نعمة الله تعالى عليهم. وهنا بادر الحجّاج بسرعة إلى تبديد هذه المخاوف فوقف في جنده خطيباً وقال: "أنا ابن تهامة وهي بلاد كثيرة الصواعق فلا يروعنكم ما ترون". ولم يكتف بذلك بل رفع أطراف قبائه وغرزه في حزامه وأتى بمنجنيق آخر وعاود الرمي وأمر أصحابه أن يفعلوا مثله، وتشاء الصدق أن تنزل صاعقة في اليوم التالي على بعض أصحاب ابن الزبير وتقتل عدداً منهم، ممّا يؤكّد صدق قول الحجّاج لأصحابه بأنّ تلك الصواعق ظواهر طبيعيّة مألوفة في تهامة، وانبرى لهم من جديد قائلاً: إنّ القوم يصيبهم مثل ما أصابكم وأنهم يصابون وانتم على الطاعة وهم على خلاف الطاعة (87).

أثّر طول الحصار ومواصلة الرمي بالمنجنيق في نفوس أصحاب ابن الزبير واحتمالهم الاستمرار في القتال، ويصوّر ابن عساكر (88) حالة الضعف التي كان عليها الجنود الزبيريون المرابطون في المواقع الهامّة، بأنّهم كانوا يتناوبون أعمال الحراسة الليليّة " وهم على ذلك يتضورون من الجوع ما يقدر الرجل يقاتل ولا يحمل السلاح لما فيه من الضعف ". وهنا أدرك أصحاب عبد الله بن الزبير أنّهم لا بد هالكون عن آخرهم إذا استمروا بالقتال، فإمّا أن يلاقوا حتفهم في ميدان المعركة أو يموتوا جوعاً. فقرّر معظمهم قبول الأمان الذي ما انفكّ الحجّاج يعرضه عليهم منذ بداية الحصار. وتقدّر المصادر عدد الذين خرجوا إلى الحجّاج من أهل مَكَّة ليؤمّنهم بحوالي عشرة آلاف شخص بينهم بعض أفراد أسرة عبد الله بن الزبير، منهم أخوه عروة بن الزبير وإبناه حمزة وخبيب، وقد وقى لهم الحجّاج بالأمان (89). وشجّعت هذه البادرة عدداً آخر من أصحاب ابن الزبير على انتهاج ذات السبيل. وأورد ابن قتيبة الدينوري (90)، رواية تصوّر واقع الاستسلام الذي ظهر على انصار ابن الزبير في الساعات الأخيرة من القتال، تقول: " فلما كانت الليلة التي قُتل في صبيحتها جمع عبد الله بن الزبير القرشيين فقال لهم: ما ترون؟ " فقال رجل منهم من بني مخزوم: والله لقد قاتلنا معك حتى ما نجد مقاتلاً، ولئن صبرنا معك ما نزيد على أن نموت معك، وإنّما هي إحدى خصلتين: إمّا تأذن لنا فنأخذ الأمان لأنفسنا ولك،

وإما أن تأذن لنا فنخرج"... فقال رجلٌ آخر: أكتب إلى عبد الملك، فقال له عبد الله: وكيف أكتب إليه، من عبد الله بن الزبير أمير المؤمنين، فو الله لا يقبل ذلك مني أبداً. أم اكتب إليه لعبد الملك أمير المؤمنين من عبد الله بن الزبير، فو الله لأن تقع الخضراء على الغبراء أحب إلي من ذلك. فقال أخوه عروة: "يا أمير المؤمنين قد جعل الله لك أسوة... فقال عبد الله: من هو أسوتي؟ قال: الحسن بن علي بن أبي طالب خلع نفسه وباع معاوية. فرفع عبد الله رجله وضرب عروة حتى ألقاه ثم قال: يا عروة قلبي إذن مثل قلبك، والله لو قبلت ما تقولون ما عشت إلا قليلاً وقد أخذت الدنية، وما ضربة بسيف إلا مثل ضربة بسوط، لا أقبل شيئاً مما تقولون".

أدى هذا الموقف المتشدد اليائس بالكثيرين من أصحاب ابن الزبير إلى الخروج إلى الحجاج بن يوسف طالبين الأمان. ويبدو أن الحجاج حاول استخدام عروة في اقناع أخيه بقبول الأمان وإنهاء عصيانه، وأن هذه المهمة لاقت قبولاً واستحساناً من عروة لإنقاذ أخيه من موت محقق. وورد المسعودي (91): خروج عروة إلى الحجاج طالباً والأمان ثم عاد إلى أخيه فقال له: "هذا خالد بن عبد الله بن أسيد وعمرو بن عثمان بن عفان يعطيانك أمان عبد الملك على ما أحدثت أنت ومن معك وأن تنزل أي بلاد شئت، لك بذلك عهد الله وميثاقه وغير ذلك من الكلام، فأبى عبد الله قبول ذلك". كذلك عرض عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب على ابن الزبير قبيل مقتله أن يخرج إلى الحجاج ليأخذ له أماناً فأبى (92).

- ابن الزبير والمصير المحتوم:-

ويبدو أن عبد الله بن الزبير أخذ يراجع موقفه في الساعات الأخيرة ومال إلى قبول الأمان (93)، فأخذ يبحث ابنه الزبير على أخذ الأمان كما فعل أخواه، كما دخل على أمه أسماء بنت أبي بكر وقال لها: "يا أمة: خذني الناس حتى ولدي وأهلي ولم يبق معي إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة. والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا، فما رأيك؟! فقالت: أنت والله يا بني أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكّن من رقبته يتلعب بها غلمان بني أمية، وأن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت. أهلك نفسك وأهلك من قتل معك، وأن قلت: كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت فليس هذا فعل الأحرار ولا أهل الدين. وكم خلوك في الدنيا؟ القتل أحسن" (94). بهذه الكلمات تبيّنت أسماء موقف ابنها، وخرج من عندها مصمماً على القتال مُدركاً مصيره المحتوم.

وهنا أدرك الحجاج قرب نهاية عبد الله بن الزبير، فخطب في أصحابه وحضهم على القتال وقال: "هذا الفتح قد حضر، وقد ترؤن خفة مع الملحد ابن الزبير من الرجال وقتلهم وما فيه أصحابه من الضيق والجهد، ففرحوا واستبشروا وملأوا ما بين الحجون<sup>(95)</sup> إلى الأبواب"<sup>(96)</sup>.

وحصر ابن الزبير داخل الحرم المكي، حيث أقام الحجاج على كل باب من أبواب المسجد رجالاً يقودهم قائد وقد اختار القادة من بلاد مختلفة<sup>(97)</sup>. ويرى بعض الباحثين أن الحجاج استهدف من وراء ذلك إشراك جميع أهل الأمصار حتى يصعب على قومه أن يثاروا له<sup>(98)</sup>. وقد أظهر عبد الله بن الزبير شجاعة فائقة في قتال جند الشام إلا أن شجاعته مع قلة أصحابه لم تغن شيئاً أمام جحافل الحجاج، وانتهى الأمر بأن رماه رجل من السكون بأخره فأصابته في وجهه فوق، وتولى قتله رجل آخر من مراد واحتز رأسه، وأتى به الحجاج فسجد، وأوفد الرجلين إلى عبد الملك فأجازهما وزاد في عطائهما<sup>(99)</sup>، وكان ذلك في 17 جمادي الآخرة عام 73هـ / 3 نوفمبر 692م، وبذلك قضى الحجاج على أكبر خطر حقيقي واجهته دولة الخلافة الأموية وظل يتحدى حلفاءها زهاء عشر سنين<sup>(100)</sup>.

ولعل جسامه هذا الخطر هي التي حدثت الحجاج إلى إرسال رأس عبد الله بن الزبير ورؤوس عدد من كبار أعوانه إلى المدينة، ومنها إلى دمشق، لتكون عبرة لكل من تحدته نفسه بالخروج على الخليفة الأموي وسلطانه، وهو تقليد كان متبعاً في ذلك العصر حتى يصدق الناس أخبار القضاء على أصحاب الفتن والثورات، ولم يكتف الحجاج بذلك، بل أمر بصلب جثة ابن الزبير. وهنا تذهب المصادر كل مذهب في تمجيد عبد الله بن الزبير والنيل من الحجاج الذي كانت نهاية ابن الزبير على يديه. فبعضها يُغالي فيقول إن الحجاج أمر بسلخ جلد عبد الله بن الزبير وحشوه تبناً وصلبه<sup>(101)</sup>. والبعض الآخر يروي أن عبد الله بن الزبير استمر يشرب الصبر والمسك أياماً فبيل مقتله مخافة ان يُصلب فيشتم ننته، وأنه لما صُلب قرن الحجاج بجثته هرة مينة وقيل كلباً مينا<sup>(102)</sup>، وقيل بل جيفتي سنورين ذكرين لأن جيفة السنور أنتن الجيف<sup>(103)</sup>. وتقول بعض هذه المصادر أن رائحة المسك كانت تغلب على رائحة الجيف. ومثل هذه الروايات يبدو عليها الغلو والوضع، وأغلب الظن أنها من وضع الرواة والإخباريين الذين استنكروا قتل ابن الزبير والمصير المؤلم الذي آلت إليه حياته السياسيّة. ومثل هذه المبالغة نجدها في تصوير بعض الإخباريين للقاء الذي تم بين الحجاج وأسماء بنت أبي بكر والدة عبد الله بن الزبير بعد مقتل ابنها. فقد روى عوانة بن الحكم أن الحجاج بعث بعد صلبه ابن الزبير إلى أسماء لتأتيه، فأبّت، فأرسل إليها يتهددها ويقول: "لتقبلن أو لأبعثن إليك من يجرك بقرونك. فقالت لرسوله: قل لابن

أبي رغال لست أفعل او تبعث إليّ من يجزني بقروني. وعند ذلك ذهب الحجاج إليها وسألها كما تزعم الرواية: كيف رأيت ما صنعت؟ قالت: من عنيت؟! قال: عبد الله، قالت: "رايتك أفسدت عليه دنياه وأفسد عليك آخرتك"... أما إنني سمعتُ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: يكون في ثقيف كذاب ومبير، فأما الكذاب فقد رأيناه، وأما المبير فأنت هو. فانصرف الحجاج وهو يقول: مبير المنافقين مبير المنافقين، قالت: بل عمودهم<sup>(104)</sup>.

ويستبعد أن يكون الحجاج قد وجّه مثل هذا التهديد إلى أسماء التي لم تعرف عنها تلك الأهمية السياسية، فضلاً عن أن هذا الأسلوب يتنافى مع ما عرف عن العرب عامة من احترامهم للنساء وعدم الفحش في القول. وقد احتج الحجاج فيما بعد على كلمة نابية قالها أحد أعوانه لوالدة عبد الرحمن بن الأشعث بعد مصرع ابنها. ولا يُعقل أن يوجّه الحجاج مثل هذا القول للسيدة أسماء التي كانت تتمتع باحترام المجتمع الإسلامي آنذاك لموقفها المعروف إبان الدعوة الإسلامية. وأما الحديث الذي نُسب إلى السيدة أسماء فقد ورد كما ذكرنا في باب المناقب والفتن الذي لا يستطيع الباحث ان يُثبت او ينفي ما جاء فيه من أحاديث، ناهيك عن أن الحديث المذكور ورد بعبارات متعدّدة وعمامة دون تحديد أو تخصيص<sup>(105)</sup>. كذلك وردت أحاديث مشابهة ربما كان مصدرها انصار بني أمية تنبئ بقيام رجل من قریش يُلجِد في الحرم وتحدّره من مغبة ذلك<sup>(106)</sup>.

وأورد اليعقوبي رواية مجهولة الراوي يبدو عليها الوضع والغرابة تذهب إلى أن الحجاج بن يوسف تقدّم إلى أسماء بنت أبي بكر ليخطبها إلى نفسه وقد عمي بصرها وناهزت من العمر مائة عام، فاستكرت أسماء ذلك، وقالت: وهو يخطب عمياء وبنت المائة!! فقال الحجاج: ما أردت إلا مسالفة رسول الله!!<sup>(107)</sup>.

والأقرب إلى الواقع أن تستنكر أسماء صلب ابنها، إذ بعثت بهذا الاستنكار إلى الحجاج فقال لها: إنني استبقت أنا وهو إلى هذه الخشبة فكانت اللجة به فسبقني إليها<sup>(108)</sup>. فاستأذنته في تكفينه ودفنه فأبى عليها ذلك، ووكل بجنته من يحرسها وكتب إلى عبد الملك بذلك. والأقرب إلى الواقع أيضاً أن يذهب الحجاج إلى أسماء بنت أبي بكر يعزيها بابنها عبد الله بن الزبير<sup>(109)</sup> ويسأل عن حاجتها وأن لا تستقبله استقبالا كريماً وهي الأم الثكلى، وقد أورد الذهبي<sup>(110)</sup> رواية بهذا المعنى تقول: أنه لما قتل الحجاج ابن الزبير دخل على أسماء وقال لها: يا أمه: إن أمير المؤمنين وصاني بك فهل لك من حاجة؟ قالت: لست لك بأمة ولكني أم المصلوب على رأس الثنية وما لي من حاجة ولكني أحدثك،

سمعتُ رسول الله يقول: يخرج في تقيف كذاب ومبير، فأما الكذاب فقد رأيناه - تعني المختار بن أبي عبيد التقيف - وأما المبير فأنت. فقال لها: مبير المنافقين.

ويقول اليعقوبي<sup>(111)</sup>: إنَّ الحجاج استجاب آخر الأمر لطلب أسماء وأمر بإنزال جثة ابن الزبير المصلوبة وذلك عندما جاءت إلى الحجاج وقالت له: أما أن الأوان لهذا الراكب أن ينزل بعد. وطلب مثل ذلك عبد الله بن عمر<sup>(112)</sup>، وقيل أن عروة بن الزبير طلب من عبد الملك بن مروان أن يهب جثة أخيه إلى أمه، فكتب إلى الحجاج بذلك<sup>(113)</sup>.

ومهما يكن من شيء فإنَّ القضاء على دعوة عبد الله بن الزبير في مكة على يد الحجاج بن يوسف لم يكن كما يقول فلهوازن<sup>(114)</sup> سوى الفصل القليل الشأن في الرواية. ذلك أنَّ الحجاز منذ مقتل عثمان (رضي الله عنه) كان قد أصبح ميتاً من الناحية السياسيّة ولم يكن من الممكن اعادته مركزاً للحياة السياسيّة.

كما أنَّ هذا الحدث رغم الناحية المأساوية فيه أعاد الوحدة للدولة العربيّة الإسلاميّة بقيادة الأمويين<sup>(115)</sup> بعد أن تزعزع مفهوم هذه الوحدة وكادت الجماعة الإسلاميّة تنقسم منذ ذلك العهد إلى شيّع وأحزاب وممالك، فقد رُفعت في عام 68هـ أربعة ألوية في عرفات: لواء مع محمد بن الحنفية وأصحابه يمثل الشيعة، ولواء مع ابن الزبير، ولواء مع نجدة بن عامر الحروري يمثل الخوارج، ولواء مع بني أمية<sup>(116)</sup>. وهو وضعٌ كانت تستحيل معه الوحدة الإسلاميّة ما لم يتغلب لواء من هذه الألوية وتتخفّض الألوية الأخرى شاءت ذلك أم أبت، وهو ما حدث بالفعل، إذ قُدِّر للحجاج بن يوسف أن يرفع لواء الوحدة ويثبته في مكة باسم دولة الخلافة الأموية.

#### الخاتمة:

إذا كنّا لا نؤرّخ لدعوة ابن الزبير وحركته فان ذلك لا يمنع من تقرير حقيقة ثابتة كان لها أكبر الأثر في بروز شخصيّة الحجاج بن يوسف على مسرح السياسة الأموية وبدء حملة جمهور المؤرخين المسلمين عليه، ويمكن اجمال هذه الآثار في النواحي الآتية:

أولاً - إنَّ حملة الحجاج ضدَّ ابن الزبير في الحجاز أظهرت اخلاصه العملي للأمويين وأبرزت كفاءته العسكريّة، ممّا أكّد الثقة السابقة فيه وجعل عبد الملك يعينه والياً على مكة والمدينة والطائف<sup>(117)</sup>. ثمَّ لم يلبث أن أضاف إليه اليمن واليمامة مكافأةً له على ولائه واخلاصه وتقديراً لمواهبه وقدراته.

ثانياً - إنَّ الموقف المتصلب الذي اتَّخذه عبد الله بن الزبير ورفضه أمان عبد الملك أكثر من مرة اضطرَّ الحجاج إلى استخدام القوَّة للقضاء عليه وأحلَّ مَكَّة ذاتها، وهو أمرٌ استنكره جمهور المسلمين، لمكانة مَكَّة الدينيَّة في نفوسهم، وما تواتر لديهم عن حرمتها، فضلاً عن قيام جيش الحجاج بضرب مَكَّة وحرَمها الذي التجأ إليه ابن الزبير بحجارة المنجنيقات، وما سبَّه الرمي من أضرار بالكعبة ووقوع خسائر في الأرواح والممتلكات. ورغم أنَّ هذه الأعمال تمَّت جميعها بموافقة عبد الملك ورضاه إلا أنَّ معظم المؤرخين نسبوها للحجاج بن يوسف بالدرجة الأولى وشرعوا منذ ذلك الوقت تسويد صفحته ففضاءلت من جزاء ذلك الأعمال الأخرى التي قام بها خدمةً للخلافة والجماعة (118).

ثالثاً - إنَّ الطريقة التي تمَّ فيها القضاء على شخص عبد الله بن الزبير وقطع رأسه وإرساله إلى المدينة ودمشق وما تبع ذلك من صلب جثته في مَكَّة أثار مشاعر جماعة كبيرة من المسلمين، لا سيما وأنَّ ابن الزبير كان شخصيَّة إسلاميَّة مرموقة وواحداً من أبرز الصحابة والتابعين في ذلك العصر. وقد أثار القضاء عليه بهذا الشكل حفيظة المؤرخين فصبَّوا نقيمتهم على الحجاج، رغم قيام جماعة أخرى من المسلمين تبرَّر القضاء على ابن الزبير وتتهمة بأنَّه استحلَّ حرمة البلد الحرام باتخاذه مركزاً لحركته المناوئة للأمويين. وقد أوردت هذه الفئة من الأحاديث ما يعزِّز موقفها منها حديث عثمان بن عفان (رضي الله عنه) قال فيه: "سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: يُلحد بمكَّة كبش من قريش أسمه عبد الله، عليه نصف أوزار الناس"، وقيل أنَّ عبد الله بن عمر بن الخطاب حدَّر عبد الله بن الزبير من الإقدام على مثل هذا العمل قائلاً له: "يا ابن الزبير إيَّاك والإلحاد (119) في حرم الله فإنِّي سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: سيُلحد فيه رجلٌ من قريش لو توزن ذنوبه بذنوب الثقلين لرجحت، فانظر لا تكنه" (120). ولا يُستبعد هنا أيضاً أن تكون هذه الأحاديث موضوعة لتعزيز وجهة النظر الأموية من دعوة ابن الزبير.

وقد تردَّدت مثل هذه الآراء المدافعة عن عمال بني أمية زمن الجاحظ في القرن الثالث الهجري، إذ وضع رسالة للردِّ على أصحاب هذه الآراء الذين دعاهم باسم النابتة، وفي هذه الرسالة القيِّمة يبسط الجاحظ دعاوى النابتة ويردِّ عليهم بأسلوبه المعروف ويسائل الجاحظ هؤلاء قائلاً: "كيف تقولون في رمي الكعبة وهدم البيت الحرام وقبله المسلمين؟ فإن قلتُم ليس ذلك أرادوا بل إنَّما أرادوا المتحرِّز به والمتحصَّن به بحيطانه، أفما كان من حق البيت وحرимه ان يحصروه فيه إلى أن يعطي بيده؟ وأي شيء أبقى من رجلٍ أخذت عليه الأرض إلا موقع قدمه !! " (121).

لكن الجاحظ كان يعلم أنّ عبد الله بن الزبير قد رفض أمان الخليفة الأموي وأبى النزول على الشرطين اللذين عرضهما عليه الحجّاج باسم الخليفة وهما: الذهاب في الأرض حيث شاء يختار من الولاية ما أحب<sup>(122)</sup>، أو يبعثه إلى الشام مقيداً بالحديد واختار ابن الزبير أن يموت قعصاً بالرماح وتحت ظلال السيوف<sup>(123)</sup> كما كان يقول، شأنه في ذلك شأن أخيه مصعب.

والواقع أنّ عبد الله بن الزبير ما كان يمكنه أن يختار غير هذا الموقف والمصير، لا سيما وأنّه شغل منصب الخلافة لمُدّة تقارب السنوات العشر، فضلاً عن أنّ مصيره لو اختار الاستسلام لن يكون مضموناً كما قالت والدته أسماء<sup>(124)</sup>، وإذا قُدّر له أن ينجو من عقاب الأمويين فإنّه سيعيش ما تبقى له من العمر حياة منسيّة مغمورة لا تتفق مع سجل حياته الحافل بالشجاعة والجرأة وعلو الصيت.

وقد سجّل التاريخ هذا الموقف لابن الزبير في كثير من عبارات الاعجاب والثناء، وكان للحجّاج بن يوسف في المقابل الكثير من الاساءات والتهم، فكأنّ عبد الله بن الزبير من خلال موقفه الشجاع الذي قاتل فيه عدوه حتى آخر رمق في حياته قد كسب نصراً معنوياً على الحجّاج وذلك عن طريق انتزاع الإعجاب بموقفه حتى من خصومه. إذ قال فيه طارق بن عمر: "ما ولدت النساء أذكر منه"<sup>(125)</sup>، وبذلك استطاع ابن الزبير بطريق غير مباشر أن يُسوّد صفحة الحجّاج وبني أمية في التاريخ ويزيد نقمة جمهور الجماعة الإسلاميّة عليه، وهو شعور ساعدت جملة حوادث على تعميقه ابتداءً بمأساة كربلاء التي قُتل فيها الحسين بن علي عليه السلام إلى حملة الحجاز الأولى التي استهدفت المدينة المنورة ومكّة المكرّمة، وانتهاءً بحملة الحجاز الثانية التي قادها الحجّاج وكان من أمرها ما كان.

#### الهوامش:

- (1) ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء، اسماعيل بن عمر (ت774هـ)، البداية والنهاية، (بيروت - الرياض 1966م)، 151/8.
- (2) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، (310هـ)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم، (القاهرة 1960-1969)، 347/5.
- (3) ابن كثير، البداية والنهاية، 151/8.
- (4) الطبري، البداية والنهاية، 389/5-390.
- (5) البلاذري، احمد بن يحيى بن جابر (ت279هـ)، أنساب الاشراف، مخطوط، مصور دار الكتب المصرية، رقم 1103، قسم 2، ص 17.

- (6) الأزرقى، ابو الوليد محمد بن عبد الله بن احمد (ت حوالي 250هـ)، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تح: رشدي الصالح ملحق، ط2 (لا مطبعة، مكة المكرمة، 1965م)، 201/1.
- (7) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 502/1.
- (8) خليفة بن خياط، ابو عمرو العصفري البصري (ت240هـ)، تاريخ خليفة بن خياط، تح: سهيل زكار، (لا مطبعة، دمشق 1967)، 324/1.
- (9) الخربوطلي، علي حسين، عبد الله بن الزبير، سلسلة اعلام العرب، (لا مطبعة، لا مكان، 1965)، ص102.
- (10) البلاذري، أنساب، ج4، قسم 2، ص27.
- (11) م. ن، ص 132، 136، 140.
- (12) الطبري، تاريخ الرسل، 530/5.
- (13) ينظر: المسعودي، ابو الحسن علي بن الحسين (ت346هـ). مروج الذهب ومعادن الجوهر، (لا مطبعة، بيروت 1965م)، 86/3؛ الماوردي، ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت450هـ). الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ط2 (لا مطبعة، القاهرة 1966م)، ص 9؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 238/8؛ المقرئ، تقي الدين احمد بن علي (ت845هـ)، النزاع والتخاصم فيما بين أمية وبني هاشم، (لا مطبعة، النجف 1966م)، ص13.
- (14) الذهبي، شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان (ت748هـ)، تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، (لا مطبعة، القاهرة 1368هـ)، 182/3.
- (15) اليعقوبي، احمد بن أبي يعقوب بن وهب المعروف بابن واضح الإخباري (ت284هـ)، تاريخ اليعقوبي، (دار الكتب العلمية - بيروت - د.ت) 261/2؛ وينظر أيضاً: القلقشندي، ابو العباس احمد بن علي، (ت821هـ)، مآثر الإنافة في معالم الخلافة (لا مطبعة، الكويت-1964م)، 129/1؛ ابو المحاسن، جمال الدين يوسف بن تغري بردي (ت874هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (دار الكتب المصرية- القاهرة، د.ت)، 188/1.
- (16) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، 261/1.
- (17) الكندي، ابو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب بن حفص التجيبي (ت حوالي 350هـ)، ولاة مصر، تح: الدكتور حسين نصار، (لا مطبعة، بيروت، 1959م)، ص 72؛ وينظر: القلقشندي، مآثر الإنافة، 129/1، إذ يذكر عن الجاحظ أنه أول من سنَّ التعريف في مساجد الأمصار عبد الله بن عباس وأنَّ العلماء أنكروا عليه هذا النقل؛ ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، 188/1.
- (18) ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، 188/1.
- (19) ذكر المقدسي، محمد بن احمد بن ابي بكر (ت380هـ) في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط3، (دار صادر، بيروت، 1991م) ص159 سبباً آخر لاهتمام عبد الملك ببناء مسجد الصخرة في القدس، وذلك حتى يضاهاى به كنيسة القيامة التي خشى أن يُفتتنَ بها المسلمون.
- (20) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، 324/1.

- (21) البلاذري، أنساب، ج5، ص 355، 356.
- (22) م. ن، ص 356.
- (23) م. ن، ص 356.
- (24) لا تذكر المصادر اسم هذا القائد، ويشير إليه البلاذري باسم البصري.
- (25) الطبري، تاريخ الرسل، 6/166.
- (26) المطهر المقدسي، مطهر بن طاهر، (ت بعد 355هـ)، البدء والتاريخ، (مصور طبعة باريس 1899م)، 6/25.
- (27) عبد الرزاق حميدة، سيف بني مروان الحجاج الثقفي، (لا مطبعة، القاهرة 1947م)، ص50.
- (28) السيوطي، جمال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت911هـ)، تاريخ الخلفاء، أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة، ط4- (لا مطبعة، القاهرة 1969م) ص271.
- (29) أنساب الاشراف، 5/347؛ تاريخ الطبري، 6/174؛ ابن قتيبة، ابو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت376هـ)، الامامة والسياسة، تح: طه الزيني، 2/23 البداية والنهاية، 8/325.
- (30) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، 2/226؛ ابن قتيبة، الامامة والسياسة، 2/24.
- (31) ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، 8/325.
- (32) ابو حنيفة الدينوري، احمد بن داود (ت282هـ)، الأخبار الطوال، تح: عبد المنعم عامر، (القاهرة 1960م)، ص313.
- (33) ابن عبد ربّه، ابو عمر، احمد بن محمد الاندلسي (ت328هـ)، العقد الفريد، (القاهرة 1967م)، 4/414؛ وينظر؛ الامامة والسياسة، 2/25.
- (34) ابن سعد، ابو عبد الله محمد (ت230هـ)، الطبقات الكبرى، (بيروت 1960م)، 5/228.
- (35) البلاذري، أنساب الاسراف، 5/357.
- (36) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، 2/266.
- (37) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص212.
- (38) ابن سعد، الطبقات الكبرى، 5/228.
- (39) الكندي، ابو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب بن حفص التجيبي (ت: حوالي 350هـ)، ولاة مصر، تح: الدكتور حسين نصار (بيروت 1959م)، ص2؛ المقرئزي، تقي الدين احمد بن علي (ت845هـ)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، (طبعة لبنان)، 2/71؛ وينظر أيضاً: سيّد كاشف، عبد العزيز بن مروان، سلسلة أعلام العرب، (1967م)، ص30.
- (40) الطبري، تاريخ الرسل، 6/174؛ ابن الأثير، عز الدين ابو الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري، (ت630هـ)، الكامل في التاريخ، (بيروت 1965م)، 4/349.
- (41) البلاذري، أنساب الاشراف، 5/357، 358.

- (42) ينظر: ابن الأثير، الكامل، 349/4.
- (43) ينظر: أنساب الاشراف، 358/5; الأخبار الطوال، ص314.
- (44) الطبري، تاريخ، 175/6.
- (45) ابن قتيبة، 24/2.
- (46) الكندي، ولاية مصر، ص72; المقرئزي، المواعظ والاعتبار، 71/2.
- (47) ينظر: البلاذري، أنساب، 358/5.
- (48) أنساب الاشراف، 358/5; تاريخ الطبري، 175/6; الكامل في التاريخ، 350/4.
- (49) بئر ميمون: بئر منسوبة إلى ميمون بن خالد بن عامر الحضرمي في الجاهلية وعندها قبر أبي جعفر المنصور، ينظر: ياقوت الحموي، ابو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي (ت626هـ)، معجم البلدان (بيروت 1955م)، 302/1.
- (50) المطهر المقدسي، البدء والتاريخ، 26/6.
- (51) الزفن: الرقص.
- (52) الفنيق: الناقة السمينية، ينظر: ابن منظور، ابو الفضل جمال الدين بن مكرم بن علي (ت711هـ)، لسان العرب، (مصور طبعة بولاق- القاهرة)، 188/12.
- (53) البلاذري، أنساب الاشراف، 358/5، 359.
- (54) م. ن، ص360.
- (55) ينظر: ابن الأثير، الكامل، 350/4.
- (56) العائد بالبيت: هو عبد الله بن الزبير اتخذ هذا البيت منذ خروجه على دولة الخلافة الأموية.
- (57) الطبري، تاريخ الرسل، 175/6.
- (58) ابن كثير، البداية والنهاية، 325/8.
- (59) الامامة والسياسة، 24/2.
- (60) البلاذري، أنساب، 357/5، 358; وينظر: perier, J. Vie d' al- Hadjdjad Ibn Yousof d' apres Les Sources Arabes (Paris 1904),P.30.
- (61) م. ن، ص40.
- (62) ابن الأثير، الكامل، 350/4، 351.
- (63) ابن كثير، البداية والنهاية، 329/8.
- (64) المسعودي، مروج الذهب، 112/3، 113.
- (65) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، 266/2.
- (66) ابو علي القالي، اسماعيل بن القاسم بن عبدون، ذيل الأمالي، (بيروت)، ص71.

- (67) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، 74/1.
- (68) فلهاوزن، يوليوس، تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام الى نهاية الدولة الأموية، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي ابو ريده، (ط2- القاهرة 1968م)، ص6.
- (69) تاريخ خليفة بن خياط، 342/1; أنساب الاشراف، 368/5.
- وينظر أيضاً: A.Dietrich: AL-Hadjdjadj, Encyolopaedia of Islam (New Edition) Vol. 3,p.40.
- (70) البلاذري، أنساب، 362/5، 363.
- (71) ينظر: تهذيب تاريخ ابن عساكر، 49/4; تاريخ الرسل والملوك، 187/6; تاريخ الخلفاء، ص212.
- (72) الطبري، تاريخ الرسل، 175/6.
- (73) الجحفة: قرية كانت على طريق المدينة، ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، 111/2.
- (74) أنساب الاشراف، 361/5; الكامل في التاريخ، 353/4.
- (75) البلاذري، أنساب، 360/5; ابن الأثير، الكامل، 351/4.
- (76) انساب، 5361.
- (77) ينفرد البلاذري بذكر هذه الرواية عن الأحباش، ينظر: الأنساب، 360/5، 361.
- (78) م. ن، ص361.
- (79) تهذيب تاريخ ابن عساكر، 415/7; المطهر المقدسي، البدء والتاريخ، 26/6.
- (80) ابن عبد ربّه، العقد الفريد، 417/4.
- (81) تهذيب تاريخ ابن عساكر، 415/7.
- (82) يوسف العث، الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداءً من فتنة عثمان، (دمشق 1965م)، ص192.
- (83) البلاذري، أنساب، 363/5.
- (84) تهذيب تاريخ ابن عساكر، 420/7.
- (85) ينظر: أنساب الاشراف، 362، 363/5; الطبري، تاريخ الرسل، 187/6; ابن الأثير، الكامل، 351/4.
- (86) ابن كثير، البداية والنهاية، 329 /8.
- (87) الطبري، تاريخ الرسل، 187/6، 188.
- (88) تهذيب تاريخ ابن عساكر، 418/7.
- (89) الطبري، تاريخ الرسل، 188/6; ابن الأثير، الكامل، 353/4; الذهبي، تاريخ الإسلام، 173/3.
- (90) الامامة والسياسة، 24/2.
- (91) المسعودي، مروج الذهب، 113/3.
- (92) البلاذري، أنساب، 365/5.

(93) Perier: Vol d,al – Hadjdjadj, p. 43.

(94) الطبري، تاريخ الرسل، 6/188.

(95) الحجون: مكان من الكعبة على مسافة ميل ونصف منها، ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، 5/366، 367.

(96) البلاذري، أنساب، 5/363.

(97) البلاذري، أنساب، 5/366، 367؛ الطبري، تاريخ الرسل، 6/190.

(98) علي الخربوطلي، عبد الله بن الزبير، ص 225.

(99) البلاذري، أنساب، 5/368.

(100) Laura Vaglieri: The Patriarchal and Umayyad Caliphates, The Cambridge History of Islam, Vol. 1, p.84.

(101) المطهر المقدسي، البدء والتاريخ، 6/26.

(102) البلاذري، أنساب، 5/369.

(103) الجاحظ، ابو عثمان عمرو بن بحر (ت 255هـ)، الحيوان، تح: عبد السلام هارون، (ط2- القاهرة 1967م)،

1/247؛ وينظر: ابن الأثير، الكامل، 4/357.

(104) البلاذري، أنساب، 5/369، 370.

(105) مسلم بن الحجاج، أبو الحسن القشيري النيسابوري، (ت 261هـ)، صحيح مسلم، (دار الكتب العلمية، بيروت -

لبنان)، 8/191؛ الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة السلمي (ت 279هـ)، الجامع الصحيح، تح:

ابراهيم عطوة عوض، (القاهرة 1965م)، 4/499، 5/729.

(106) تهذيب تاريخ ابن عساکر، 7/414.

(107) تاريخ اليعقوبي، 2/267.

(108) البلاذري، أنساب، 5/368.

(109) تهذيب تاريخ ابن عساکر، 4/50.

(110) الذهبي، سير أعلام النبلاء، (القاهرة - 1962م)، 2/212.

(111) اليعقوبي، تاريخ، 2/267.

(112) ابن كثير، البداية والنهاية، 8/332.

(113) البلاذري، أنساب، 5/370.

(114) فلهاوزن، تاريخ الدولة العربية، ص 15.

(115) Grunebaum, G. Von: Classical Islam, (London 1970), P.72.

(116) اليعقوبي، تاريخ، 2/268.

(117) تاريخ خليفة بن خياط، 1/387.

(118) ابراهيم الكيلاني، الحجاج الحاكم والخطيب، (دمشق 1940م)، 2/12، 13.

- (119) أَلْحَدَ فِي الْحَرَمِ: استحلَّ حرمة وانتهكها.  
(120) تهذيب تاريخ ابن عساكر، 414/7.  
(121) الجاحظ، رسائل الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، (القاهرة 1964، 1965م)، 12/2، 15.  
(122) البلاذري، أنساب، 375/5.  
(123) الطبري، تاريخ الطبري، 166/6.  
(124) م. ن، ص 188.  
(125) البلاذري، أنساب، 367/5، 368.

### المصادر والمراجع:

#### أولاً: المصادر

- الأزرقى، ابو الوليد محمد بن عبد الله بن احمد (ت حوالي 250هـ).
  - 1- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تح: رشدي الصالح ملحس، ط2، (لا مطبعة، مكة المكرمة، 1965).
- البلاذري، احمد بن يحيى بن جابر (ت279هـ).
  - 2- انساب الاشراف، د. ط (دار الكتب المصرية، مصر، د.ت).
- الترمذي، الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة السلمي (ت279هـ).
  - 3- الجامع الصحيح، تح: ابراهيم عطوه عوض، (لا مطبعة، لا مكان، 1965م)
- الجاحظ، ابو عثمان عمرو بن بحر (ت255هـ).
  - 4- الحيوان، تح: عبد السلام هارون، ط2، (دار الكتب، القاهرة، 1967م)
  - 5- رسائل الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، (مكتبة الخانجي، القاهرة، 1964).
- ابو حنيفة الدينوري، احمد بن داود (ت282هـ).
  - 6- الأخبار الطوال، تح: عبد المنعم عامر، (دار احياء الكتب، القاهرة، 1960م).
- ابن خياط، ابو عمرو العصفري البصري (ت240هـ).
  - 7- تاريخ خليفة بن خياط، تح: سهيل زكار، (لا مطبعة، دمشق، 1967م)
- الذهبي، شمس الدين محمد بن احمد (ت748هـ).
  - 8- تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، د. ط، (لا مطبعة، القاهرة، 1949م).

- 9- سير أعلام النبلاء، د. ط، (دار الحديث، القاهرة، 1962م).
- ابن سعد، أبو عبدالله بن محمد (ت230هـ).
- 10- الطبقات الكبرى، د. ط، (دار صادر، بيروت، 1960م)
- السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن ابي بكر (911هـ)
- 11- تاريخ الخلفاء، ط4، (لا مطبعة. القاهرة، 1969م).
- الطبري، م. (1969م)
- 12- تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد ابو الفضل إبراهيم، د. ط، (لا مطبعة، القاهرة، 1969).
- ابن عبد ربّه، احمد بن محمد الاندلسي (328هـ)
- 13- العقد الفريد، د. ط، (لا مطبعة، القاهرة، 1967م).
- ابو علي القالي، إسماعيل بن القاسم (ت356هـ)
- 14- ذيل الأمالي والنوادر، د. ط، (بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت).
- القلقشندي، أبو العباس احمد بن علي (821هـ)
- 15- مآثر الإنافة في معالم الخلافة، د. ط، (لا مطبعة، الكويت، 1964م).
- ابن قتيبة، ع. (1997م)
- 16- الامامة والسياسة، تح: طه الزيني، د. ط (دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م).
- ابن كثير، عمادالدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت774هـ)
- 17- البداية والنهاية، د. ط، (لا مطبعة، الرياض، 1966م)
- الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف (ت350هـ)
- 18- ولاية مصر، تح: الدكتور حسين نصّار، د. ط، (لا مطبعة، بيروت، 1959م).
- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت346هـ)
- 19- الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ط2، (لا مطبعة، القاهرة، 1966م)
- ابو المحاسن، جمال الدين يوسف ابن تغري بردي (874هـ).
- 20- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، د. ط، (دار الكتب المصرية، القاهرة، د.ت).
- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت346هـ)

- 21- مروج الذهب ومعادن الجوهر، د. ط، (لا مطبعة، بيروت، 1965م).
- مسلم بن الحجاج، أبو الحسن القشيري (ت262هـ)
- 22- صحيح مسلم، د. ط، (دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت).
- المطهر المقدسي، مطهر بن طاهر (355هـ).
- 23- البدء والتاريخ، د. ط (لا مطبعة، باريس، 1899م)
- المقرئ، تقي الدين احمد بن علي (ت845هـ)
- 24- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط1، (دار صادر، بيروت، 1990م)
- 25- النزاع والتخاصم فيما بين أمية وبنو هاشم، د. ط، (لا مطبعة، النجف، 1996م).
- المقدسي، محمد بن احمد بن ابي بكر (380هـ)
- 26- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط3، (دار صادر، بيروت، 1991م).
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم بن علي (0711هـ)
- 27- لسان العرب، د. ط، (مطبعة بولاق، لقاهرة، د.ت)
- اليعقوبي، احمد بن ابي يعقوب بن وهب (284هـ)
- 28- تاريخ اليعقوبي، د. ط، (دار الكتب العلمية، بيروت، 1984م).
- ياقوت الحموي، أبو عبدالله شهاب الدين ياقوت بن عبدالله (626هـ)
- 29- معجم البلدان، د. ط، (دار صادر، بيروت، 1955م).

#### ثانياً: المراجع:

- ابراهيم، الكيلاني
- 30- الحجاج الحاكم والخطيبين، د. ط، (لا مطبعة، دمشق، 1940م).
- ابن بدران، علي
- 31- تهذيب تاريخ ابن عساكر، ط1، (المكتبة العربية، دمشق، د.ت).
- الخربوطلي، علي بن حسين
- 32- عبدالله بن الزبير، د. ط، (الدار المصرية، القاهرة، 1965م).
- سيّد كاشف، عبدالعزيز بن مروان
- 33- سلسلة أعلام العرب، د. ط (لا مطبعة. لا مكان، 1967م).

• عبد الرزاق، حميده

34- سيف بني مروان الحجاج الثقفي، د. ط، (لا مطبعة، القاهرة، 1947م)

• فلهاوزن، يوليوس

35- تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام الى نهاية الدولة الأموية، ترجمة الدكتور محمد

عبد الهادي ابو ريده، ط2، (لا مطبعة، القاهرة، 1968م)

• يوسف العث

36- الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداءً من فتنة عثمان، د. ط، (لا

مطبعة، دمشق، 1965).

المراجع الاجنبية:

- 1- A. Dietrich: AL-Hadjdjadj, Encyolopaedia of Islam (New Edition) Vol. 3.
- 2- Grunebaum, G. Von: Classical Islam, (London 1970) .
- 3- Laura Vaglieri: The Patriarchal and Umayyad Caliphates, The Cambridge History of Islam, Vol. 1.
- 4- perier, J. Vie d' al- Hadjdjadj Ibn Yousof d' apres Les Sources Arabes (Paris 1904).